منهجية تدريس التاريخ القديم في الجامعة الجزائرية

أ/فاضل لخضر

جامعة معسكر

ترتكز معظم الدراسات التي تعرضت لتاريخ الحضارات والعقائد القديمة وأصل الكون ونشأة الإنسان على المنهج الاستشراقي الذي أرسيت أسسه منذ القرن السابع عشر وتبلورت أهدافه منذ القرن التاسع عشر.

هذا المنهج الذي وضعت وفقه المناهج التعليمية في التاريخ والعلوم الإنسانية على وجه خاص في أغلب البلدان ومنها بلادنا، أنه بعيد كما سنبين من خلال هذه المداخلة كل البعد عن المنهج العلمي الموضوعي في معالجة قضايا الإنسان والحضارة من حيث التجرد والحيادية في استقصاء الحقائق وعدم البناء على الأحكام المسبقة وترك التعصب للأفكار وأدلجة القضايا التاريخية والتشكيك في المسلمات بما يخدم قضية أو مشروعا معينا ولو على حساب تاريخ الإنسانية ومنجزاتها على مر العصور.

وإن المتصفح لأغلب المصادر والمراجع التي تدرس لطلبة التاريخ خاصة والعلوم الإنسانية عامة في الجامعات الجزائرية سيلاحظ انسياقا عاما نحو أفكار وتصورات ونظريات تبنيناها ونعاملها نحن للأسف معاشر الأساتذة على أنها حقائق تاريخية دونما تمحيص، بل الأدهى أن منا من لم ينتبه إلى خطورتها ومفاسدها ولم يعرها اهتمامه، وهناك من وقف على الفساد الفكري فيها والمغالطات الشنيعة التي تضمنتها ومع ذلك لا نراه ينبه –أقله–الطلبة حتى لا نقول عامة الناس إليها، فضلا عن محاولة تصحيحها وتبيان مكمن الزلل والدس الإيديولوجي فيها حتى يحذرها الناس.

ونحن من منطلق المسؤولية العلمية والأمانة التاريخية اتجاه أجيال من الطلبة الجزائريين الذين ندرسهم وسندرسهم مستقبلا، وتنبيها على المخاطر الفكرية التي تمس الثوابت الدينية والوطنية التي تشكل قوام الشخصية الجزائرية المشتملة عليها منهجية تدريس التاريخ القديم عامة وتاريخ الجزائر القديم على وجه خاص ،ارتأينا

التعرض في هذه المداخلة إليها وتنبيه جمهور الأساتذة والباحثين والطلبة والمهتمين بهذه الجوانب من تاريخ الإنسانية بشكل عام عليها من أجل استدراك الأخطاء وتصحيح المنهج ودعوة الجميع إلى التكاتف والتعاون وتقديم الحلول العملية لتحقيق ذلك.

لقد تعرضنا لهذا الموضوع من ثلاث زوايا مختلفة حتى تسهل المعالجة حسب الترتيب الزمني، وذلك بتوضيح طبيعة المنهج التي تدرس وفقه كل فترة والمقاييس المرتبطة بها والأفكار والتصورات التي صيغت له، مع نظرة عامة على المصادر والمراجع التي تحتويها مكتباتنا الجامعية والمعتمدة بشكل واسع في تدريس هذه المواد أو إنجاز البحوث بها من قبل الطلبة، دون إغفال الأمر المهم وهو نقد مادة هذه المراجع وإظهار التوجه الفكري عند أصحابها وأسبابه ؛ هل هو الانسياق الأعمى وراء أفكار ونظريات المستشرقين ومتابعة الآراء والأفكار المسبقة دونما تمحيص وتبصر، أم عن سبق إصرار فكري ومحاولة فرض قناعات وإيديولوجيات عن طريق إلباسها ثوب الأحداث التاريخية، وإبراز ما إذا كانت مراجع يمكن الاطمئنان إلى صدقيتها العلمية تماما، أم تحتاج إلى مراجعة وإعادة كتابة للتخلص من كل ما يمكن أن يعد سموما فكرية قد تفتح باب التشكيك في العقائد والمسلمات التي نشأنا عليها.

هذه المحاور الثلاث هي :

1/عصور ما قبل التاريخ وما يتصل بها من أصل الإنسان وما يسمى خطئا تطوره البيولوجي وإنتاجه الحضاري .

2/تاريخ العقائد لدى الشعوب والحضارات القديمة، مع أمثلة تطبيقية.

3/تاريخ الجزائر القديم من خلال وقفة على منهج كتابته عل أيدي الباحثين الفرنسيين.

I- عصور ما قبل التاريخ:

تتضمن محاور السنة الأولى ل.م.د تاريخ عام والسنة الثانية ل.م.د آثار وقبل ذلك في السنة الأولى تاريخ نظام قديم مقياسا يدرس من خلاله الطلبة فترة ما قبل التاريخ تحت مسميات مختلفة :"عصر ما قبل التاريخ"، "آثار ما قبل التاريخ " ، "ما قبل التاريخ". ويأخذون فيها معلومات متنوعة عن هذا التخصص وموضوعاته

والعصور الجيولوجية وظهور الإنسان والعصور الحجرية من العصر الحجري القديم إلى فجر التاريخ في كل مناطق العالم القديم مع ما يتخللها من منجزات دينية ومادية وحضارية حققها الإنسان تدريجيا.

لكن هل وقفنا يوما على طبيعة المعلومات التي ندرسها والمنهج الذي كتبت وفقه، ألم يحدث لنا نحن الأساتذة لبس وغموض وحيرة فعلية وفي غالب الأحيان ونحن نقرأ على طلبتنا محاضرات متأكدين من أنها تحوي الكثير من المتناقضات ليس فيما بينها فقط ، ولكن بينها وبين الحقائق التي أقرتها المكتشفات العلمية الحديثة.

هل كلفنا أنفسنا عناء التنبيه على الكثير من المغالطات والأخطاء الفادحة التي نعلم يقينا أنها كذلك، لكن للأسف يأخذها الطلبة كمسلمات لمجرد أننا درسناها لهم .و لا أذكر ولو مرة واحدة أن طالبا ناقشني في تاريخ ظهور الإنسان رغم أن ما كتبه وحفظه يتصادم تماما مع قناعته الدينية حتى لا أقول نتائج البحث العلمي الحديث.

لقد تصفحت عددا من المراجع التي تحتويها مكتباتنا الجامعية والتي يكاد اعتماد الطلبة عليها يكون كليا لانجاز بحوثهم منها كتاب "ما قبل التاريخ" للباحث الجزائري المتخصص في ما قبل التاريخ "محمد سحنوني"[1] ،"المغرب الكبير" للدكتور "رشيد الناضوري"[2] ،"تاريخ إفريقيا العام .المنهجية وعصر ما قبل التاريخ" "لكي زيربو"[3]، "المغرب القديم "لمؤلفه "محمد بيومي مهران"[4]، "مواقع وحضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب القديم" للدكتور "محمد الصغير غانم"[5] ،"الجغرافيا التاريخية" للدكتور" محمد يسري الجوهري"،[6]"ما قبل تاريخ إفريقيا" للباحثة الفرنسية "د.أليمان"[7] ،"ما قبل التاريخ في حوض البحر الأبيض المتوسط" للباحث م.سوتير[8] ، و" فن ما قبل التاريخ" لصاحبه "ل.روفي"[9]، "تطور الإنسانية.إنسان ما قبل التاريخ " للأثري "ج.مورغان" [10]، و"ما قبل تاريخ الإنسانية" ل "ر.جراهمان" [11] وغيرها كثير من المراجع التي لا يتسع المقام لذكرها كلها هنا، التي تختلف في مواضيعها بيد أنها تتشابه تماما في أهدافها والغايات من وراء تأليفها والإيديولوجيا التي تنطلق منها في معالجة تاريخ الإنسانية خلال هذه الحقبة.

إن الخلاصة العامة ألتي نخرج بها من تصفح هذه الكتب على تخصص بعضها هي :

1- أن الكون بكل ما فيه ظهر مصادفة وبصورة تلقائية دون تدخل من الخالق عز وجل وأنه أوجد نفسه بنفسه.

2-الحياة على الأرض ظهرت مصادفة ونشأت من تلقاء نفسها نتيجة ظروف طبيعية بواسطة الخلية الحية الأولى التي كونت نفسها بنفسه(نظرية التنظيم الذاتي)، رغم أن الاحتمالات الرياضية والتجارب العلمية المخبرية تثبت استحالة ذلك .

3-أن الحقب الجيولوجية الأربع بعصورها المختلفة شهدت تطور بلايين من أشكال الحياة النباتية والحيوانية انطلاقا من هذه الخلية البدائية وعلى امتداد ملايين السنين وصولا إلى عصرنا الحاضر، وذلك رغم عدم وجود الأدلة الحفرية على هذا التطور المزعوم.(نظرية الانفجار الكمبري المفندة لهذا الرأي)

4- أن الإنسان يشترك والقردة العليا(الشامبانزي، الغوريلا) في أصل واحد –أي أنه من سلالة القردة –وأنه لزمته ثلاثين مليون سنة من التطور ليصبح عما هو عليه اليوم. وهذا الرأي لا شك في أننا نسخر منه نحن ونرفضه ونعتبره من النكات السمجة.ولكننا من ناحية أخرى نعتقد فيه بل ونغرسه في عقول طلبتنا دون أن نشعر لأن المنهج الذي ألفت بموجبه كتب هذا التخصص كان استنادا إلى النظرية الداروينية الحديثة التي لا تختلف كثيرا عن آراء داروين حول أصل الإنسان.

وللتدليل على هذا القول يكفي أن نعود إلى كتاب ما قبل التاريخ لسحنوني محمد الذي أشار فيه إلى أصل الإنسان عد فيه القردة الجنوبية من أشباه الإنسان، بل إنه تبنى السلم التطوري وربط الصلة بين هذه القردة البائدة(أستراوبثكوس، أيجيبتوبثكوس ،دريوبثكوس، رامابثكوس...) والإنسان المعاصر بأنواع عدها مراحل انتقالية مستعيرا الأسماء الشائعة الاستعمال لدى الداروينيين الجدد وأنصارهم وهي الإنسان الماهر ،الإنسان المنتصب، الإنسان العاقل النياندرتالي، الإنسان العاقل العاقل.....وغيرها.[12]

ولقد أثبت علم المستحثات الحديث أن هذه الأنواع مجرد مسميات لا وجود لها ولا يوجد شئ يسمى السلم التطوري للإنسان، وأن هذه الأنواع البشرية ليست متعاقبة في الزمن ولكن عاصر بعضها البعض في زمن واحد ،و أن

ما يروج له في مقرراتنا الجامعية من أن الإنسان العاقل ظهر في آخر السلسلة التطورية منذ عشر آلاف سنة فقط قبل الميلاد، يعود وجوده على الأرض في الحقيقة إلى ثمانمائة ألف سنة خلت على أقل تقدير بشهادة عالم تطوري وقع على هذا الاكتشاف.[13]

وعندما نطلع على كتاب الجغرافيا التاريخية للدكتور سليمان حزين يطالعنا رأي أخذه ولا شك عمن سبقوه ممن يقولون ببدائية الإنسان النيادرتالي مفاده أن الملاحة لم تكن ممكنة قبل العصر النيوليتي أي قبل تسعة آلاف سنة قبل الميلاد . في حين تطالعنا إحدى المجلات العلمية بتاريخ 14مارس1998 أنه تم اكتشاف أنقاض سفينة يعود تاريخها إلى 700000 سنة قبل الميلاد تثبت أن ما يعرف عند دعاة التطور بالانسان المنتصب ويصنف على أنه نوع بدائي جدا لم يكن كذلك ، بل كان يمارس الملاحة منذ زمن بعيد.[14]

نعم نحن بهذا ندرس لطلبتنا فكرا ماديا إلحاديا شئنا أم أبينا، وإن التسليم بهذه المصطلحات واستخدامها وتعليمها يجعلنا موافقين على الايديولوجيا التطورية التي استحدثتها وإن أبدينا رفضنا للفكر الذي تمثله، وتقودنا في النهاية ولو ضمنا إلى إنكار أبوة آدم عليه السلام للبشرية.

إن ما يسمى العصور الحجرية بأقسامها طعن في البشرية ونزولا بها إلى مرتبة الحيوانية التي نزهها الله عنها، إذ تصور الإنسان دون سند أثري أو تاريخي يشيد حضارة قائمة على استخدام الحجارة لخلوه من العقل الذي يتيح له معرفة الأشياء والتعلم .ألا تصوره كتب ما قبل التاريخ عاري الجسم إلا قليلا بهيمة يبحث عن الثمار ويمارس الصيد ولا هم له سوى ذلك منذ 15 ألف سنة قبل الميلاد.

ألا يتعارض ذلك مع صريح القرآن لكريم الذي ورد فيه أن الله عز وجل علم آدم الأسماء كلها، أي أنه لم يستخلف الإنسان في الأرض دون أن يزوده بالعلم والمعرفة التي تمكنه من تسخير الطبيعة .أليس اعتماد الفكرة القائلة ببدائية الإنسان وحيوانيته تهمة لله عز وجل من حيث أنه ظلم الإنسان حين أنزله إلى الأرض دون توجيه رباني وتركه لنفسه يصارع البيئة من حوله معتمدا على نفسه طيلة آلاف السنين حتى ترقى في سلم الحضارة .أي الفكرين يجب أن ندرس ونزرع في رؤوس أبنائنا خاصة وأنه لا يمكن بأي حال التوفيق بينهما.

ألا يتعارض ذلك مع المكتشفات الأثرية التي أفضت إلى حقيقة مدهشة وهي اكتشاف إبرة متحجرة تعود إلى 27 ألف سنة قبل الميلاد [15]، مما يعني أن الإنسان المعروف بالبدائي كان يخيط ملابسه بنفسه ولا يرتدي فقط أوراق الأشجار وجلود الحيوانات كما يصور لنا.

إذن ألم يئن الأوان بعد للبدء في تصحيح هذه الأفكار الإلحادية المقصودة المدسوسة علينا من غيرنا وحذفها من مقرراتنا الجامعية والدعوة إلى إعادة تدوين تاريخ إنسان ما يسمى خطئا ما قبل التاريخ في ضوء المكتشفات العلمية الحديثة، أم سندعها على علاتها ونترك هذه الشبهات الفكرية - ولا أقول العلمية -تنال من تكويننا العلمي، بل ونساعد على ترويجها. وفي ذلك مسؤولية عظيمة.

II-تاريخ العقائد القديمة:

من ضمن المقاييس المقررة على الطلبة نجد "آثار الحضارات القديمة" للسنة الثانية ل.م.د آثار،"تاريخ الحضارات القديمة" للسنة الأولى ل.م.د،"تاريخ الأديان والمعتقدات القديمة" للسنة الرابعة نظام قديم ،"تاريخ الأديان والمعتقدات في المغرب القديم " "و المعتقدات والأديان في العالم القديم"للسنة الأولى ماستر آثار.

في هذه المقاييس يدرس طلبتنا المعتقدات والأديان القديمة لدى الشعوب والحضارات القديمة وفق محاور متنوعة.ففي السنة الرابعة نظام قديم والسنةالأولى ماسر آثار مثلا يدرسون تطور الفكر الديني، ديانة المصريين وسكان بلاد مابين النهرين والفينيقيين والإغريق واليونانيين والفرس والبوذية واليهودية والمسيحية وغيرها .

لكن السؤال الذي يستوقفنا هنا هو :بأي منهج ندرس هذه المعتقدات للطلبة، أي نوع من المعلومات نمدهم بها فيما يخص عقائد هذه الأقوام .هل هي فعلا علمية وصحيحة وتمثل التاريخ الديني الصحيح لها دون تحريف ودس إيديولوجي معاد ، هل المصادر والمراجع المستعملة الأجنبية والعربية منها على وجه خاص حيادية في هذا الشأن أن أم أصحابها يعتنقون فكرا معينا ويبثونه عبر كتبهم ومؤلفاتهم. أليس هناك طمسا للكثير من الحقائق التاريخية في التاريخ الديني القديم عن قصد ووفق خطة مدروسة .هل تنبهنا نحن الأساتذة إلى هذه المسألة وتعاملنا مع المادة العلمية بنقد وتمحيص، أم أننا انسقنا كغيرنا وراء هذا التيار الجارف وساهمنا

في الترويج لما يدعو له.ألم يحدث للكثير منا في مشواره التعليمي وأن استوقفته لبرهة بعض المراجع بما تضمنته من مغالطات تاريخية وقفز على الحقائق ثم مر عليها مرور الكرام دون أن يكلف نفسه عناء مناقشتها والبحث في خلفياتها ومقاصدها.

هذه أسئلة كثيرة ولا ريب وتحتاج إلى أجوبة ملحة، لذا كان علينا العودة إلى بعض المراجع المختصة في تاريخ الأديان أو الحضارات القديمة الموجودة في مكتباتنا من أجل الاطلاع عليها .وبعد مراجعة محتويات عدد منها ومطالعة ما فيه، خرجنا بالخلاصة الآتية:

أ- فساد منهج تدريس الأديان حيث كتب من منطلقات إستشراقية معادية للدين والأنبياء والرسل.

ب- طغيان الفكر الاستشراقي على الكتب والمراجع التي تؤرخ للديانات القديمة بخاصة بمنطقة الشرق الأدنى القديم، حيث يعد أصحابها مروجين له عن قصد أو عن غفلة وجهل بسبب إهمال إعمال الفكر والنقد للمادة التي ألفوا بها كتاباتهم.

ج-تصوير التاريخ الديني للمجتمعات القديمة على أنه تاريخ وثني كله لا أثر فيه لدعوة التوحيد وتعمد إسقاط ذكر دعوات الرسل والأنبياء في حياة هذه الأمم، وينتج عن ذلك الاعتقاد بأن التوحيد أمر عارض وأن الشرك والوثنية هي الثابت في معتقدات هؤلاء، وأن الله تعالى لم يتعهد البشرية بالوحي على فترات من التاريخ.

د-شيوع المصطلحات الإلحادية في الكتب والمراجع بل وجعلها عناوين لمؤلفات كاملة من قبيل: الفكر الديني، مقارنة الأديان وغيرها التي توحي بأن الدين من اختراع الإنسان ونتاج فكره بفعل تفاعله مع البيئة الطبيعية لمئات السنين، وأنه تطورت ديانته منذ فجر التاريخ من الشرك وعبادة الآلهة المتعددة حتى وصلت إلى مرحلة التوحيد .وهذا الكلام غير صحيح ويهدم عقيدتنا من أساسها التي تقرر بأن الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام خلق مؤمنا موحدا لله تعالى لا بدائياً ولا جاهلا بربه ،ثم وقع الانحراف بعد ذلك في ذريته نحو الشرك والوثنية.وللأسف الشديد كل المراجع التي اطلعنا عليها تنطلق من هذه الفكرة.

و- الاعتماد على الكتب الدينية المحرفة كأصول تاريخية في كتابة التاريخ الديني للشرق الأدنى القديم ونقصد بها التوراة والإنجيل ،مع استبعاد أصول لاشك

في دلالتها وقطعيتها التاريخية وهما القرآن والسنة النبوية اللذان تضمنا أخبار وعقائد العديد من الشعوب القديمة من جملة المصادر المؤرخة لديانة الإنسان القديم، لتعارضها مع فكرهم الاستشراقي.

ه- التشكيك المتعمد والتأويل الفاسد للنصوص القديمة (السومرية، البابلية.....) المشتملة على دلائل التوحيد(نزول الملكية من السماء في نصوص مدينة أور السومرية ،نسب التشريعات العراقية القديمة المتقاطعة في روحها مع بقايا الوحي السماوي منذ عهد نوح وإبراهيم عليهما السلام) تأويلا غير علمي يفرغها من قيمتها الدينية.

ن-إنكار الوحي والرسل والأنبياء في حياة المجتمعات القديمة متابعة للمستشرقين الغربيين ،حتى وجدنا من الكتاب العرب والمسلمين من يشكك صراحة في وجود بعض الرسل [16]، وآخرون يؤرخون لديانة سكان مابين النهرين وديانة المصريين والكنعانيين والعرب القدماء [17]، ولا نجد عندهم أي ذكر للرسل الذين بعثوا إلى هاته الأقوام لهدايتهم كرسالة نوح وإبراهيم إلى أهل سومر، رسالة يونس بن متى إلى أهل نينوى من أرض الموصل، رسالة يوسف وموسى عليهما السلام إلى أهل مصر، رسالة إلياس إلى أهل كنعان.إلى جانب دعوة أنبياء العرب هود وصالح وشعيب ولوط إلى أقوامهم لا أثر لها في مراجع تاريخ العرب القديم.[18]

ي-إظهار الوثنية لا التوحيد كأصل لدين الإنسانية.

ولنسق عينات من المراجع العربية والمنقولة إلى العربية التي من المفروض أن لا تحمل مثل الفكر والطرح باعتبارها مراجع علمية والتي انساق مؤلفوها-مع احترامنا الشديد لمكانتهم العلمية- على اقتدارهم العلمي وسعة اطلاعهم وراءها وتبنوها دون تنبه منهم لها، لأن تكوينهم العلمي ومادة تآلفيهم كان وفق منهج المستشرقين، بل إن الكثير منهم تتلمذ على أيدي هؤلاء وتشرب أفكارهم :

- قدم لنا الدكتور رشيد الناضوري -رحمه الله- في كتابه[19] تصورا إستشراقيا محضا عن معتقدات إنسان الشرق الأدنى القديم، إذ اعتبر أن منشأ الدين وأصله من عمل الإنسان وتصوراته ونتيجة تفكيره وتأملاته الطويلة في ظواهر الطبيعة[20] ،هذه الظواهر جسدها في آلهة متعددة عبدها وتقرب إليها، وذلك في كل من سوريا، العراق، مصر، الأناضول، الهضبة الإيرانية.[21]

-يقول الدكتور عبد الحميد الزايد في مقدمة كتابه "الشرق الخالد ": "إن أهك مصادر الديانة الرافدية القصص والأساطير مثل أسطورة الخليقة وقصة جلجاميش .....وكذلك التعاويذ والرقى ونصوص التنبؤ والتنجيم..."

ألا يحق لنا أن نتساءل عن سبب تغييب القرآن الكريم كمصدر مهم بل الأول عن ديانة سكان بلاد مابين النهرين.ألم يتحدث القرآن عن قصة الطوفان التي أجمعت عليها المصادر السومرية والبابلية. أليست قصة نوح مشابهة تماما لقصة "زيوسودرا" البابلي الذي أوحى إليه الاله بصنع السفينة لنقاذ جزء من البشرية من الدمار الذي سيحيق بها.

يصر الدكتور أحمد أمين سليم في كتابه حضارة العراق القديم على الأثر البيئي كعامل أساسي في تشكيل- العقيدة والقيم السلوكية والأخلاقية لدى الإنسان العراقي القديم بتفسيرات غامضة.[26]

كما يقول أيضا :" ولئن أشير إلى شرائع العالم القديم بأنها أولى جهود البشر في تنظيم الحياة الاجتماعية وفق قواعد وأصول معينة، فان أهل العراق القديم أنفسهم كانوا يعدون الآلهة مصدرا لهذه الشرائع . والواقع أنها بلغت حدا من الكمال يدفعنا إلى القول بأنها ثمرة جهد وتفكير يستحقان الإعجاب والتقدير." [27]

نعم بهذه البساطة يجزم الدكتور الموقر بأن مجموع هذه التشريعات من اجتهاد البشر ووضعهم وثمرة جهد وتفكير رغم أنه يقر بأنها بلغت حد الكمال.ولست أدري كيف أمكنه الإقرار بهذا الكلام لاسيما وأنه يعلم أن مصدر التشريع في حياة الأمم كلها رباني، خاصة إن كانت تلك القوانين كما هو الحال هنا فيها عدالة اجتماعية وقانونية عالية جدا لا يمكن لمجتمعات لم يمضي على دخولها العصر التاريخي وتدرجها في سلم الحضارة إلا زمن قصير جدا لا يكفي لتتطور فيه نظمها القانونية والتشريعية لتنتج مثل هذه النظم.علاوة على ذلك فإننا إذا ما جئنا ندرس مجتمع ذلك العصر وجدناه طبقيا، والفروقات الاجتماعية والقانونية بين فئاته شاسعة جدا، والمفروض أن هذا الواقع ينعكس على روح التشريعات ويراعيه المشرع السومري لأنه ينطلق من حقائق الواقع ويبني عليها أحكامه التشريعية.

غير أن مواد تلك التشريعات تقول عكس ذلك، فقانون حمورابي الذي يقر مبدئي القصاص والتعويض معا في الجرائم، رتب عقوبات بدنية ومالية على

هذا الكلام يعني ببساطة أن الدين ليس وحيا من الله عز وجل للإنسان من لدن آدم عليه السلام إلى اليوم، بل إنتاجا فكريا إنسانيا يجوز فيه التغيير والتأويل، وان أصل هذا الدين الوثنية.

-في نفس الكتاب يشير الكاتب إلى الديانة المصرية في عهد إخناتون على أنها أول دعوة توحيدية في التاريخ ونتيجة للفلسفة الدينية الخاصة لهذا الفرعون[22]، وهذا قول خطير لأن أول دعوة توحيدية هي دعوة آدم ثم نوح من بعده عليهما السلام وهما سابقان زمنيا بكثير لعصر إخناتون.

- تجاهل الكاتب لتفسير أسباب اعتقاد المصريين في العالم الآخر وتصويرهم له بتفاصيل يوجد الكثير منها في ديننا (وقوف الناس في القيامة للمحاسبة أمام الإله،وزن الأعمال..)، هل هي حقا نتيجة التفاعل مع البيئة المصرية كما يشاع.لكن كيف.

-الباب الثالث من الكتاب يقع فقط في ست صفحات خصصه لتبيان بعض الأحداث الدينية من خلال أسفار التوراة والقرآن الكريم.و انتهى إلى اعتبار تضحية إبراهيم بابنه إسماعيل على أنها عادة وثنية سومرية سامية.[23]

وفوق ذلك يساوي بين التوراة المحرفة والقرآن الكريم في الاستدلال على الأحداث وتعليلها.

-تشير أغلب مراجع تاريخ العرب قبل دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى" عبارة قبل الاسلام" وكأن العرب لم يعرفوا رسالة الإسلام قبل بعثة النبي عليه السلام.فماذا نعد إذن رسالة ابراهيم أبي الأنبياء وابنه اسماعيل وهود وصالح، فان لم يدعو إلى الاسلام، فما جوهر دعواتهم إذن. وحتى حديثها عن هذه الدعوات السماوية أقرب للحديث عن الأساطير منها عن التاريخ الحقيقي.[24]

- ينسب الدكتور جواد علي في كتابه الموسوعي "المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام" أسباب انهيار سد مأرب إلى العوامل السياسية والاقتصادية والحروب التي انشغلت بها مملكة سبأ عن العناية به وترميمه.[25]

ومع ذلك لا نجده يشير ولو بكلمة واحدة إلى السبب الفعلي في خراب السد وهو أنه كان عقابا من الله تعالى لأهل مأرب جراء على كفرهم به، على ما دل عليه القرآن الكريم في سور سبأ.

ويظهر دائما من تتبع تغطية المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الجزائر القديم أنهم يتبنون نفس الرؤية الاستعمارية التي تبناها سابقوهم مؤرخو الرومان من أمثال "صالوستيوس"، "تاكيتوس"،"تيتوس ليفيوس "، وذلك بوصف الثورات المحلية الكثيرة التي هزت أركان المقاطعات الرومانية بالجزائر أكثر من مرة بأنها حركات تمردية وانتفاضات وأعمال شغب ولصوصية تحركها أطماع شخصية أو قبلية مثل ثورة تاكفاريناس ويوغرطة وفيرموس وثورة البوار[31]، لا حركات تحررية للتخلص من النير الروماني.كما كانوا يصفون القمع الوحشي وإبادة السكان التي قام بها الجيش الروماني على أنها عمليات تهدئة وبسط الأمن.

كما أننا نجد دراساتهم وطروحاتهم حول هذا التاريخ تتمحور وتدور غالبا حول جدلية الصراع الأبدي بين السهل والجبل. السهل الذي يعد مركز الحضارة الرومانية بمدنها ومراكزها الحضرية التي تأوي العناصر الرومانية والأجنبية المهاجرة ومن انضم إليها من الأهالي المفتونين ببريقها، والجبل ومن ورائه الأرياف والقرى والبوادي التي تعد تجمعات أساسية لسكان البلاد الأصليين الرافضين –حسب زعمهم– للنموذج الروماني الذي كله محاسن وايجابيات.[32]

هذا الطرح الذي لا دليل عليه سوى قراءات مضللة لمجموع النقوش والنصوص، إن انسقنا خلفه نجد أنفسنا أمام صورة قاتمة عن الدور السلبي جدا للسكان المحليين الذي ينحصر حسب هؤلاء في العيش في المناطق النائية في فوضى وبغير نظام سياسي وحضاري ينظم حياتهم على هامش الحضارة الأجنبية ينظرون إليها بحقد وينتظرون الفرصة المناسبة للنزول من معاقلهم الجبلية لتدمير مدنها التي تمثل التجسيد المادي لكل ما يبغضونه في الأجنبي، مغفلين عمدا العوامل السياسية والاقتصادية والأزمات التي مرت بها الجزائر الرومانية وأدت لخراب معظم تلك المدن، أي أن الرومان كانوا المسؤولين الأكبر عن خراب مدنهم لا أهالي البلاد كما تطالعنا به أغلب الدراسات التي لم تكن أمينة ومنصفة لهم، لأنها كانت تعلم أن تلك الصورة شكلت من مجموع الكتابات والمصادر الرومانية المعاصرة والمعادية بطبعها لهؤلاء. وكان على المؤرخين الفرنسيين توخي الحذر في النقل عنها وإخضاعها للنقد العلمي قبل الاعتماد عليها، ولكنه أمر لا يبدو أنه حدث لأنه يتماشى والغايات الفكرية التي كانت تحكم منهجهم ومحصلتها إثبات القصور

الذاتي الحضاري لسكان الجزائر القديمة منذ عصور ما قبل التاريخ، وأنهم لم يقدموا نموذجا حضاريا واحدا أصيلا يعبر عن هويتهم الليبية-البربرية-، بل نماذج مستنسخة عن الحضارات الأجنبية التي تعاقبت على بلادهم والتي كانوا عالة عليها.

من ناحية أخرى حاول عديد الباحثين طمس الشخصية المحلية الليبية وإلحاقها قسرا بالهوية الرومانية بالقول بأن أصحابها ذابوا فعلا في تيار الرومنة الحضاري واستبدلوا بعاداتهم القبلية الموروثة عن الأسلاف الأسماء والعادات الرومانية، وأن أجيالا كاملة فصلت عن ماضيها الموري[33].مغفلين معطيات نصية وأثرية مهمة تؤكد وجود ممانعة حضارية وثقافية واضحة وقوية لمحاولات الاختراق الرومانية التي باءت بالفشل وانجرت عنها نتائج معاكسة تماما.

غير أن ذلك لم يمنع وجود عدد من الباحثين نبهوا على خطورة المنهج الذي اتبعه من سبقوهم في المجال وشخصوا معايبه التي تتنافى وأصول البحث التاريخي، كما أقروا بوجود توجيه مسبق لدراسات نهاية القرن التاسع عشر من السلطة الاستعمارية، وأن ذلك التدخل أثر سلبا على مصداقية الكتابات التاريخية والبحوث الأثرية لأنها أهملت الفترات الأخرى التي تشكل تاريخ الجزائر القديم، وهي السابقة للفترة الرومانية.أبرزهم بول ألبير فيفيريي الذي شنع على العديد من مواطنيه إنتقائيتهم اللاموضوعية واللاعلمية في التعامل مع تاريخ الجزائر والمنطقة المغاربية عموما خلال العهد الروماني.[34]

من ناحية أخرى عانت الجوانب الأثرية لتاريخ الجزائر القديم من هذا التعسف العلمي والتحيز الإيديولوجي

من أوائل الأثريين الفرنسيين الذين لم يكونوا مؤهلين علميا للقيام بذلك الجهد العلمي الضخم المتمثل في الكشف عن الآثار القديمة، فمعظمهم كانوا ضباطا وإداريين وأعوان الإدارة الاستعمارية . ونتيجة لأساليبهم الغير أكاديمية ألحقوا أضرارا كبيرة بالمواقع الأولى المكتشفة.

من جانب آخر أولوا حسب أوامر أعطيت لهم من أعلى المستويات الأولوية الكبرى للآثار الرومانية، مما حملهم في كثير من الأحياء على تخريب الآثار العائدة للعهد الإسلامي القائمة فوق منشآت العهد الروماني للوصول إليها، وهو ضرر لم يكن ممكنا إصلاحه فيما بعد.

بالإضافة إلى ذلك جرى استثمار معطيات الآثار تلك لاسيما النقوش وأطلال المدن في إعادة بناء غير فعلية لصورة المجتمع الإفريقي آنذاك، من حيث إبرازه في حلية المجتمع الروماني الكامل من حيث عدد عناصر سكانه وثقافتها وأسمائها وحتى انتشارها الجغرافي على خريطة الجزائر القديمة، بحيث يرى القارئ أمامه قطاعا واسعا من المدن وظهيرها الريفي يعج بالعناصر الرومانية وكأنه لا أثر لسكان البلاد من الموريين الذين نعلم أنهم كانوا يشكلون القاعدة السكانية العريضة للبلاد.إلا أن هذه الحقائق لا يبدو أن لها مكانا في تلك الدراسات.

وحتى على مستوى دراسة الأسماء تعمد أكبر متخصصيهم في المجال وهو جان ماري لاسير تبني منهج معين في أطروحته المشار إليها أعلاه، يقوم على التعميم لعينات معينة على مدن ومقاطعات بأكملها وإغفال صيغ ونسبة الأسماء ذات الأصول المورية التي تحتويها النقوش الرومانية ،لكي يوهم القارئ أن السكان الأصليين تخلوا عن أسماء أسلافهم لكي يتبنوا أسماء رومانية محضة ومن ثمة اتخاذه دليلا على أنهم ذابوا في الحضارة الرومانية متخلين عن شخصيتهم وأصولهم القبلية المورية لفائدة المحتل.

الحلول المقترحة :

بعد هذا الاستعراض الموجز لعيوب منهاج تدريس التاريخ القديم بجامعاتنا ووضع اليد على الكثير من المغالطات التي احتوتها والكتب والمراجع التي تدرس بها، نرى أن المشكلة ليست هينة على الإطلاق لأنها تمس عقيدة أبنائنا وما نعلمهم إياه سوف ينقلونه إلى الأجيال المقبلة ،لذا يجب الإسراع من الآن في إيجاد الحلول والبدائل العملية لتخليص مناهجنا ومقرراتنا من هذا الدس الفكري على تاريخ البشرية الحقيقي وعقائد الأقدمين وتغيير نظرتنا إليهم على أنهم عاشوا عصورا من التوحش والوثنية بلا هدى ولا دعوة سماوية .لذلك اهتدينا إلى مجموعة من الحلول الآتية نراها فقط انطلاقة نحو تغيير كامل وشامل للمناهج والمقررات نرجو معها إسهام الزملاء الأساتذة وتعاونهم وهي :

1- إعادة النظر كلية أو جزئية حسب الحاجة في منهاج وكيفية تدريس التاريخ القديم في الجامعة الجزائرية.

2-الدعوة إلى اجتماع عام للمتخصصين في مجال الدراسات القديمة لوضع تصورات جديدة في كيفية تلقين التاريخ القديم بعيدا عن التحيز الفكري عن طريق التخلي عن المعلومات السابقة والبناء على أفكار جديدة تأخذ في الحسبان المكتشفات الحديثة .

3-تخليص مكتباتنا الجامعية تدريجيا من كل المراجع التي ألفت وفق المنهج المعادي للأديان والتي يعرف عن أصحابها تعمد تشويه الحقائق التاريخية لخدمة أهداف فكرية معينة.

4- إطلاق مشروع وطني برعاية الوزارة الوصية يشترك فيه جميع الأساتذة المختصين لكتابة ونشر سلسلة من المراجع لتصحيح الأفكار والمعلومات الخاطئة التي احتوتها المراجع القديمة التي يعود عمر بعضها إلى أكثر من قرن ونصف وقد تجاوزتها المكتشفات الأثرية لحديثة.

5- قراءة محايدة للنصوص الأدبية القديمة(الكتابات السومرية والبابلية والكنعانية والمصرية) للديانات المختلفة التي تحمل إشارات حول التوحيد لدى هذه الأمم بعيدا عن تأويلات المستشرقين وتلامذتهم من المؤرخين العرب، ومقاربتها مع النصوص الإسلامية(القرآن والسنة).

الهوامـــش :

[1] سحنوني محمد :ما قبل التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1990.

[2] الناضوري رشيد :المغرب الكبير .العصور القديمة أسسها التاريخية وحضارية والسياسية ،المجلد الأول، دار النهضة العربية، بيروت ، 1981.

[3] زيربو كي :تاريخ إفريقيا العام .المنهجية وعصر ما قبل التاريخ، المجلد الأول ،اليونسكو ،1980.

[4] بيومي مهران محمد: المغرب القديم ،دار المعرفة الجامعية ،الطبعة الأولى، الإسكندرية ،1990.

[5] الصغير غانم محمد : مواقع وحضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب القديم، الطبعة الأولى، دار الهدى، الجزائر ،2003.

[6] الجوهري محمد يسري : الجغرافية التاريخية، الطبعة الأولى ،المكتبة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الأولى ، 1988.

[7] Alimen (H),Prehistoire de l'Afrique, éd Boubée, Paris,1955.

[8] Sauter(M),Préhistoire de la méditerranée :Paléolithique- Mésolithique, Paris,1948.
[9] Revé(L),l'Art de la préhistoire, La Rocothèque, Paris,1993.
[10] Morgan(J),L'évolution de l'humanité. L'humanité préhistorique, Paris,1924.
[11] Grahmann(R),La préhistoire de l'humanité, Payot, Paris, 1955.

[12] سحنوني محمد : المرجع السابق ،ص ص12-32.

[13] هارون يحيى:خديعة التطور .الانهيار العلمي لنظرية التطور وخلفياتها الإيديولوجية ،ترجمة سليمان بايبارا، مراجعة أحمد ممتاز سلطان وأورخان محمد علي، الطبعة الأولى، استانبول ،1999،ص ص 90-99.

[14] نفسه، ص88.

[15] نفسه، ص94.

[16] فراس السواح : آرام دمشق واسرائيل. في التاريخ والتاريخ التوراتي، الطبعة الأولى ،دار علاء الدين ،دمشق، 1995، ص 54.حيث نجد الكاتب يناقش حقيقة وجود شخصية النبي يوسف عليه السلام ويعتبرها قصة رومانسية أكثر منها تاريخ موثق، لا لشئ إلا لأن المصادر المصرية لم تورد ذكره والتوراة المحرفة ذكرت أخبارا متناقضة بشأنه.

[17] نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:د/بثينة إبراهيم مرسي :تطور الديانة المصرية من خلال لوحات النذور ،الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ،2010؛أحمد أمين سليم :العصور الحجرية. وما قبل الأسرات في مصر والشرق الأدنى القديم ،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية ،2011.؛جيمس هنري برستد، فجر الضمير ، ترجمة الدكتور سليم حسن ،الهيئ العامة المصرية للكتاب،القاهرة،2001؛فراس السواح : مغامرة العقل الأولى .دراسة في الأسطورة،ط11،دار علاء الدين ،دمشق ،1996؛أحمد أمين سليم ،تاريخ العراق القديم . منذ أقدم العصور وحتى الغزو الإيراني 639ق.م،دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية،2012.؛سيمسون نايوفتس ، مصر أصل الشجرة، الجزء الأول والثاني ، ترجمة أحمد محمود،ط1، مكتبة الشروق الدولية،القاهرة،2006.؛ إيملي تيتر، دوغلاس بريور،مصر والمصريون،ترجمة د.عاطف معتمد ود. محمد رزق،ط1، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ،2009.؛آنا رويز : روح مصر القديمة، ترجمة إكرام يوسف ،ط1، مكتبة الشروق الدولية ،القاهرة،2005؛ أرنولد توينبي، تاريخ البشرية،الجزء1،ط1،الدار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت،1981. ، منها :د/ أحمد أمين سليم ،جوانب من تاريخ وحضارة الجزيرة العربية في العصور القديمة،دار المعرفة الجامعية، [18] الإسكندرية ،2009.؛د/بيومي محمد مهران ،تاريخ العرب القديم ،الجزء الأول والثاني ،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ،2001؛د.جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ،دار إحياء التراث العربي ،ط1، بيروت .2011؛إسماعيل حلمي محروس، الشرق العربي القديم وحضاراته، مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية،1997

لبيب عبد الساتر،الحضارات ،دار المشرق، بيروت ،1985؛ يحيى لطفي عبد الوهاب ،العرب في العصور القديمة، دار النهضة العربية، بيروت ،1979.

[19] الناضوري رشيد :المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني ،دار النهضة العربية، بيروت ،1976.

[20] نفسه، ص9.

[21] نفسه، ص ص29-50.

[22] نفسه، ص ص91- 92.

[23] نفسه ص ص 169، 174.

[24] صالح أحمد العلي ،محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج1،بغداد، 1961،ص ص 1-119.

[25] جواد علي، المرجع السابق، الجزء 6، ص 246.

[26] أحمد أمين سليم، حضارة العراق القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ،2001، ص159، ص319-320.

[27] نفسه، ص 237.

[28] نفسه، ص 238.

[29] Gsell(St) ,L'Algérie dans l'antiquité, Jourdan, Alger,1908.

[30] Cagnat(R),L'armée romaine 'Afrique, Paris,1898,p9.

[31] Marcel (B), La résistance africaine à la romanisation,Maspéro-Sorbonne,Paris,1975,p143.

[32] Lepelley ©, les Cités de l'Afrique Romaine au Bas- Empire, I, Paris, Etudes Augustiniennes, 1979, pp. 126-128 ; Leschi (L), Etudes d'épigraphie, d'Archéologie et d'histoire africaine, Paris, Arts et métiers graphiques, 1957, pp 402-403.

[33] Lassère (J-M.), Vbique Populus, Peuplement et mouvement de population dans l''Afrique romaine de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des Sévères (146 a.c-295 p.c), Paris. C.N.R.S, 1977, pp482-483.

[34] Février (A), Approches du Maghreb Romain, I, Aix -En Provence, Edisud, 1989, p. 177.